مدخل

إلى دراسة السرد القصصي

هذا مدخل لابد منه؛ فمنذ عهد قريب بدأنا نسمع عن بلاغة السرد، وبدأت منذ ذلك الحين بعض دراسات تظهر على استحياء متوسلة بهذا المنهج، الذي هو وريث شرعي للبنيوية التي طغت فيها الصرامة العلمية على الروح الأدبية. فكانت الشعرية **La poétique** من ثم تمثل عودة محمودة نحو الأدبية، أو البحث في جماليات النص الأدبي.

وتعود نشأة الشعرية إلى بدايات القرن الماضي، حين نادى بها الشكليون الروس علما جديدا للأدب، موضوعه هو أدبية الأدب، أو ما يجعل من عمل ما عملا أدبيا على حد قول جاكوبسون[1]. وقد اجتهد الشكليون في البحث عن الأنساق البنيوية في الحكاية، مثال ذلك ما فعله " بروب " في كتابه " مورفولوجيا الحكاية الخرافية "[2] الذي درس فيه الحكاية اعتمادا على بنائها الداخلي؛ بتفكيك بنيتها، واستنباط العلاقات التي تربط مختلف الوظائف الحكائية في مسار قصصي معين، ومن ثم استنتج ما سماه المثال، أو النموذج الوظيفي؛ حيث رأى أن

obeikandl.com

الحكاية تحتوي على عناصر ثابتة هي أشكال التخصيات، أو الوظائف، التي تقوم بها، وأخرى متغيرة هي أسماء تلك الشخصيات وأوصافها، أما الوظائف فهي المهمة، وهى التي تمنحنا في النهاية البنية الوظيفية للحكاية، أو النموذج الوظيفي. وأما أسماء الشخصيات وأوصافها فتأثيرها هامشي. المهم هو ما تقوم به الشخصية، لا الشخصية نفسها.

وقريب من ذلك نجد تمييز توماشفسكي- المهم جدا- في العمل الحكائي بين ما سماه بالمتن الحكائي، والمبنى الحكائي، حيث يسمي " متنا حكائيا مجموع الأحداث المتصلة فيما بينها، والتي يقع إخبارنا بها خلال العمل.... وفي مقابل المتن الحكائي، يوجد المبنى الحكائي الذي يتألف من الأحداث نفسها بيد أنه يراعى نظام ظهورها في العمل كما يراعي ما يتبعها من معلومات "[٣].

وسوف يتضح لنا مدى أهمية هذا التمييز الذي وضعه توماشفسكي بين المتن الحكائي والمبنى الحكائي حين نصل إلى السردية المعاصرة، أو حين نأخذ في التحليل السردي للقصص القرآني، حيث يمثل التمييز بين المتن الحكائي والمبنى الحكائي في القصة مرتكزا أساسيا لا يمكن للبحث أن يقوم بدونه.

openkanar.com

ومنذ ذلك الحين بدأ ما يمكن أن نسميه الدراسة العلمية للأدب، لكن لم يكتب لها الاستمرار- لأسباب سياسية، ترجع إلى علاقة الشكليين بالسلطة الروسية آنذاك- إلى أن جاء البنيويون في منتصف القرن، فأخذوا تراث الشكليين وظلوا به إلى أن وصل على أيديهم، في وقت قصير جدا، إلى مكانة ربما لم يكن يحلم بها أصحابه أنفسهم؛ يتجلى هذا في العدد الثامن من المجلة الفرنسية Communication سنة ١٩٦٦ الذي يضم أسماء مثل بارت Barthes وتودوروف Todorov وجنت Genette... فنرى بارت في مقاله " مدخل إلى التحليل البنيوى للقصص " يستعيد عمل بروب ويعتمد عليه في مستوى الوظائف الذي اقترحه ضمن مستويات تحليل السرد؛ فيقول: " ونقترح للتمييز في العمل السردي بين مستويات ثلاثة من الوصف: مستوى الوظائف (بالمعنى الذي يعطيه كل من بروب وبريمون Bremond للكلمة) ومستوى الأفعال (بالمعنى الذي يعطيه لها جريماس Greimas عندما يتحدث عن الأشخاص بوصفها فواعل) ومستوى السرد الذي يمثله مستوى الخطاب عند تودوروف Todorov "[٤]

والوظائف عند بارت Barthes على طبقتين: توزيعية (Unités distributionnelles) وهي تتوافق مع وظائف بروب التي

أعاد بريمون استخدامها حديثا، وهذا النوع يحتفظ له بارت باسم " الوظائف " وهناك أخرى إدماجية (Unités intégratives) وهي وحدات معنوية؛ لأنها- كما يقول- تحيل على مدلول وليس على فعل، ومن ثم فلا تحتاج في إدراك دورها إلى فعل لاحق، وهي على العكس من الأولى تكثر في أنماط السرد الأكثر تعقيدا. بينما تكثر الأولى في الحكايات الشعبية[٥]. وعلى عكس بروب يرى بارت أن التسلسل المنطقي- لا الزمني- بين الوظائف، والوحدات الحكائية هو الذي ينبغي أن يكون الأداة الحقيقية لدراسة تركيب الحكي[٦].

ونجد تودوروف Todorov معتمدا على تمييز توماشفسكي السابق بين المتن والمبنى في العمل الحكائي، يميز هو الآخر بين القصة والخطاب، ويرى أنه لفهم وحدة العمل ذاتها ينبغي عزل هذين المظهرين، والبحث في مكونات كل منهما. فدراسة السرد من حيث هو قصة تعني دراسة منطق الأفعال الروائية؛ إذ إن تتالي الأفعال لا يكون اعتباطيا في سرد ما، إنما يخضع لمنطق معين[٧]، فينبغي البحث عن هذا المنطق. وهذه الأفعال تقوم بها شخصيات ينبغي كذلك دراسة العلاقات فيما بينها. أما السرد بوصفه خطابا فيفرق Todorov طرائق الخطاب بين مجموعات ثلاث: زمن السرد الذي يعني البحث عن العلاقة بين

زمن القصة وزمن الخطاب. ومظاهر السرد أو الكيفية التي تدرك بها القصة من طرف السارد. وصيغ السرد التي تتوقف على نوعية الخطاب المستعمل من قبل السارد في نقل القصة[٨]. وبذلك أسهم الرجل في تحقيق البرنامج الطموح للشعرية الجديدة المتمثل في التوصل إلى تصنيف مجرد لمقولات ثابتة للسرد[٩].

وكذلك جنت Genette لا يبعد كثيرا عما فعل تودوروف من اعتماد على تراث الشكليين الروس، وخصوصا توماشفسكي، ومستعينا كذلك بتمييز بنفنيست Benveniste بين القصة والخطاب، لوضع نظريته في تحليل السرد التي يتضمنها كتابه " محسنات ٣: Figures III " فيبدأ بتحديد المصطلحات التي يقترحها: مطلقا اسم القصة على المدلول، أو المضمون السردي... واسم الحكاية على الدال، أو المنطوق، أو الخطاب، أو النص السردي نفسه، واسم السرد على الفعل السردي المنتج، ومن ثم يرى أن مستوى الخطاب السردي وحده من بين المستويات الثلاثة هو الذي يقدم نفسه مباشرة للتحليل النصي[١٠]. وتحليل الخطاب السردي كما يرى: هو في الأساس- دراسة العلاقات بين الحكاية والقصة. وبين الحكاية والسرد، وبين القصة والسرد[١١].

وينطلق جنت من اقتراح تودوروف الذي سبقت الإشارة إليه، والذي يصنف بنية الحكاية إلى مقولات ثلاث: الزمن، وفيه يدرس العلاقة بين زمن القصة وزمن الخطاب، ومقولة الجهة (مظاهر السرد) أو الكيفية التي يدرك بها السارد القصة. ومقولة الصيغة، أي نمط الخطاب الذي يستعمله السارد... وهو وإن كان يتبنى مقولة الزمن كما هي عند تودوروف فإنه يرى أن يعدّل كثيرا في المقولتين الأخريين، بحيث إنه " يجب إعادة تجميع ما كان يوزعه تودوروف بين الجهة والصيغة، في مقولة واحدة ضخمة نسميها مؤقتا مقولة أنماط التمثيل أو درجات المحاكاة "[١٢].

وبعد كل الجهد المبذول في استيعاب نظريات السرد نعترف أنه من الصعب أن نقول إن ثمة منهجا بعينه نستطيع من خلاله تحليل القصة القرآنية، فإننا منذ الشكليين الروس (إيخنبوم ١٨٨٦– ١٩٤٨، وتوماشفسكي ١٨٩٠– ١٩٥٩، وتينيانوف ١٨٩٤– ١٩٤٣، وجاكوبسون ١٨٩٥– ١٩٣٨، وشكلوفسكي ١٨٩٣– ١٩٨٤....) وسعيهم الدؤوب وراء البحث عن الخصائص النوعية للأدب، ومن ثم اهتمامهم بدراسة الأعمال الإبداعية في ذاتها دون النظر إلى ما هو خارجي عنها... ومرورا بأعمال البنيويين الذين اهتموا بالتحليل البنيوى للحكي كما رأينا مع أصحاب

مجلة Communication حتى نصل إلى جنت Genette وكتابه: " محسنات ٣: Figures III " الذي يمثل دون شك مرحلة متميزة في تاريخ تحليل الخطاب الحكائي، وثم من تلاه مقتفيا أثره كشلوميت كنعان في كتابها " التخييل القصصي: الشعرية المعاصرة " وميك بال في مقال لها حول السرد والتبئير (Poétique 29)- أو من تلاه ناقدا إياه ومعيبا عليه بعض هنات وقع فيها في كتابه المذكور. مما دعاه لأن يضع كتابه " الخطاب الجديد للحكاية " سنة ١٩٨٣ يرد فيه عليهم، وأيضا يراجع فيه نفسه، ويعدل من آرائه.

كل هذا، وكثير غيره، يزيد الأمر صعوبة، وبخاصة حين لا نجد اثنين يتفقان في طريقة التحليل، فكل شخص تؤثر عليه معارفه، ويؤثر فيه تخصصه[١٣]... مما يوحي بأننا أمام عدة مناهج في التحليل، وهذا يتطلب منا أن نحدد اتجاهنا بصرامة من البداية؛ فنرى أن نمسك بالخيط منذ الشكليين الروس، ومع بروب حيث سنعتمد منهجه في دراسة القصة من حيث هي محكي، بدءا من ضرورة الاعتماد على بنائها الداخلي، وانتهاء إلى ما كان يطمح في الوصول إليه من " مورفولوجيا " أو وصف للحكاية وفق مكوناتها الأساسية، وعلاقة هذه المكونات ببعضها من ناحية، وأحدها بالآخر من ناحية أخرى؛ ثم مع الشكليين الجدد

نعمق بحث الحكاية من خلال بارت Barthes، وتصوراته حول التحليل البنيوى للقصص، وتمييزه بين المستويات الثلاثة: الوظائف، والأفعال. والسرد، المترابطة فيما بينها ترابطا اندماجيا تصاعديا، إذ الوظيفة تفصح عن دلالتها في حقل الفعل، الذي لا يكون بدوره ذا معنى إلا ضمن الخطاب الذي يغذيه بشفرته. وكذلك من خلال تصور تودوروف Todorov الذي قدمه في دراسته لمقولات الحكى ١٩٦٦ وميز فيه- من ناحية السرد القصصي من حيث هو محكي، أو من ناحية دراسة المتن الحكائي بتعبير توماشفسكي- بين مستويين، هما: منطق الأحداث، من جهة، والشخصيات وعلاقاتها، من جهة أخرى.

أما من ناحية السرد القصصي من حيث هو خطاب، فأمامنا التصور الذي قدمه تودوروف Todorov كذلك في مقولات الحكي، والمتمثل في المنظومة الثلاثية للتحليل السردي- من حيث هو خطاب- وهى: الزمن، والجهة، والصيغة. هذه المنظومة التي تبناها Genette في كتابه " محسنات ٣: Figures III " ووصل بها إلى درجة من الوضوح والاستقرار، تجعلنا نعتمد عليها في شيء من الاطمئنان، مستضيئين ببعض التجارب العربية التي سلكت هذا المسلك.

ونرى أن نحدد المصطلحات التي سيأتي استعمالها في الدراسة؛ وأولها السرد، وهو يقابل (La narration) في الفرنسية الذي يعني المنطوق السردي لحكاية ما سواء أكان شفاهيا أم كتابيا[١٤]، ونجد في لسان العرب في مادة سرد " السرد في اللغة تقدمة شيء إلى شيء تأتي به متسقا بعضه في إثر بعض متتابعا. سرد الحديث ونحوه يسرده سردا إذا تابعه... والسرد المتتابع " وهناك السرد القصصي ونحن نعده مقابل (Le récit) في الفرنسية. أي الطريقة التي تُروى بها القصة. وفي مادة قصص في لسان العرب نقرأ " ويقال: قصصت الشيء إذا تتبعت أثره شيئا بعد شيء " وهذا قريب مما قيل في السرد مع اختلاف قليل هو أن السرد يحتمل أن يكون قصصيا أو غير قصصي لهذا احتفظنا للكلمة (Le récit) بالسرد القصصي، هذا والكلمة (Le récit) في الفرنسية تتكون من متن حكائي ومبنى حكائي في آن. أي أنها محكي وخطاب معا؛ إنها القصة بكاملها: شكلا ومضمونا؛ واستعملنا كلمة قصة بمعنى المتن الحكائي، وكلمة خطاب (Discours) بمعنى الطريقة التي يُروى بها الخبر[١٥].

أما من ناحية القصة موضوع التطبيق- القصة القرآنية؛ فنحن في أي وقت من الأوقات لا نستطيع أن نفصل بين الكلمتين (القصة-

القرآنية) إنما يكون النظر إلى القصة على أنها قرآنية. ولذلك خصوصية مهمة. سنحتاج إلى التذكير بها مرة بعد مرة؛ فهي قصة لها أهدافها، التي ترجع إلى طبيعة الكتاب الكريم. فهو كتاب دعوة. والقصص فيه كذلك وسيلة من وسائل الدعوة. ففي كل مرة نذكر فيها قصة جديدة سنكون بحاجة إلى القول: إنها جاءت لأهداف تحققها. وغايات تسعى إليها: ﴿ فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ (١٧٦) ﴾ الأعراف ﴿ وَكُلاً نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ ﴾ سورة هود ١٢٠ ﴿ لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لأُولِي الأَلْبَابِ ﴾ سورة يوسف ١١١.

الهوامش:

1- Roman Jakobson, Huit questions de poétique, tr. Fr. Paris, Ed. Du Seuil, coll. Points, 1977, P.16

٢- يمثل هذا العمل ذروة إنجازات البحث الشكلي، وواحدا من أكثر الإسهامات الشكلية فعالية في نظرية الأدب القصصي. انظر Paul Perron: في مقاله: السردية: حدود المفهوم، ترجمة عبد اله إبراهيم، مجلة الثقافة الأجنبية، العدد الثاني، السنة ١٢، ١٩٩٢، ص: ٢٧، وفي العدد نفسه: Roger Silverstone في مقاله: في السرد (من وجهة نظر بروب وغريماس وليفي شتراوس) ترجمة كاظم سعد الدين. ويعتد Jean-Michel Adam فصلا في كتابه Le récit يتحدث فيه عن تأثير كتاب بروب في المسار المعرفي الغربي، وذلك منذ ظهور أول ترجمة له في أمريكا بعد ثلاثين عاما من تأليف صاحبه له. انظر الصفحات: ٥- ٨، ٢٤- ٢٩.

٣- الشكلانيون الروس: نظرية المنهج الشكلي. ترجمة إبراهيم الخطيب. مؤسسة الأبحاث العربية، ط١ ١٩٨٢، ص: ٣٥.

4- Roland Barthes, Introduction à L'analyse structurale des récits, Paris, éd .Du Seuil, coll.Points, 1981, P.12

5- Ibid. P.14

6- Ibid. P.18

7- Tzvetan Todorov, Les catégories du récit Littéraire, Communications n°8, éd. du Seuil, coll. Points, 1981, P. 137

8- Ibid. P.144 - 145

٩- انظر: روجيه فابول: نحو علم للأدب، اتجاهات النقد المعاصر، ترجمة محمد خير البقاعي، مجلة العرب والفكر العالمي، العدد السابع، بيروت ١٩٨٩.

10- Gérard Genette, Figures III, Paris, éd.du Seuil, coll.Poétique, 1972, P. 72 - 73

11- Ibid.P.74

12- Gérard Genette, Figures III, Paris, éd.du Seuil, coll.Poétique, 1972, P.75

١٣- يقول ميشيل فوكو بهذا الصدد: " إننا لا نستطيع بحق تحديد البنيوية كمنهج، ذلك لأنه من الصعب جدا ملاحظة وجه الشبه بين الطريقة البنيوية لتحليل القصص الشعبية عند بروب وبين طريقة تحليل الأنساق الفلسفية عند جيرو، أو وجه الشبه بين تحليل الفنون الأدبية عند فرايد بأمريكا وبين تحليل

الأساطير عند ليفي شتراوس. " وذلك في محاضرة بعنوان " البنيوية والتحليل الأدبي " ألقاها بنادي الطاهر الحداد في تونس عام ١٩٦٧، ونشرت مترجمة محمد الخماسي، في مجلة العرب والفكر العالمي، العدد١، لعام ١٩٨٨ وانظر أيضا. زكريا إبراهيم: مشكلة البنية، طبعة مكتبة مصر، بدون تاريخ، ص: ٢٤

14- Gérard Genette, Figures III, P. 71 & Oswald Ducrot – Jean Marie Schaeffer : Nouveau dictionnaire Encyclopédique des science du langage, Paris, éd.du Seuil, coll.Points, 1995, P. 710

١٥- ونشير بهذا العدد إلى أننا سنستعين كثيرا بالترجمة التي قدمها كل من: محمد معتصم، وعبد الجليل الأزدي، وعمر حلي لجانب من كتاب **Genette**: " **Figures III** " المسمى " خطاب الحكاية. بحث في المنهج " ط٢ القاهرة ١٩٩٧. وبخاصة في نقل المصطلح إلى العربية. وكذلك بسعيد يقطين في كتابه: تحليل الخطاب الروائي، ط١ ١٩٩٨. وصلاح فضل في كتابه: بلاغة الخطاب وعلم النص، الكويت، ١٩٩٢

obeikandl.com

القصة والسرد

السرد القصصي

السرد القصصي، كما يدل الاسم، يتفرع إلى قسمين كبيرين، هما: القصة (بمعنى المتن الحكائي) والسرد (بمعنى المبنى الحكائي) أما الأول فيتعلق بالأحداث والشخصيات، وأما الثاني فيتعلق بتنظيم تلك الأحداث في نسق خاص، بكيفية خاصة، من خلال سارد يتوجه به إلى مسرود له.

المتن القصصي في القرآن الكريم

إن دراسة القصة بوصفها متنا حكائيا، فذلك يعني دراسة مجموع الأحداث المتصلة فيما بينها، وتمثل مادة أولية للحكاية الواقعة من أشخاص. ودراستنا للمتن الحكائي إذن لن تخرج عن هذين المحورين:

المحور الأول- الأحداث، وقد احتفظنا لها بتسمية بروب (الوظائف) ويقصد بالوظيفة: " فعل ما لشخصية من الشخصيات، تم

obeikandl.com

تحديده من وجهة نظر دلالته داخل جريان الحبكة "[1]. والوظيفة تمثل عنصرا ثابتا في الحكاية. ولأنها تصف تفاعل الشخصيات، أي تصف أفعال السرد وأوضاعه معا، فإن ما هو مهم في دراسة القصة- فيما يرى بروب- هو التساؤل عما تقوم به الشخصيات، وليس السؤال عمن فعل هذا الفعل، أو كيف فعله؛ فتلك أسئلة لا يمكن طرحها إلا باعتبارها توابع فحسب[2].

والمحور الثاني- الشخصيات التي تقوم بهذه الأحداث أو تؤدي هذه الوظائف، وما بينها من علاقات، ودوافع تدفعها إلى ما تضطلع به من أفعال.

ولنبدأ بتحديد المصادر التي سوف نعتمد عليها في الحصول على (المتن الحكائي) لقصصنا القرآني؛ إنه النص القرآني ذاته، هو السرد القصصي في القرآن منقطعا عما عداه من تأويلات، أو إسرائيليات، أو غير ذلك... القصة كما وردت في الكتاب الكريم فحسب، بكل خصوصياتها. وإن ثمة بنية محايثة للقصة يمكن عزلها بقصد الوصف، كما يرى بروب. على أن مسألة فصل تلك البنية المحايثة- وهي مسألة شائكة ربما لاتصالها بوجه من الوجوه بتلك الثنائية القديمة: اللفظ والمعنى- هي مسألة فصل إجرائي فحسب يعين على دقة الدراسة مع احتفاظنا

للبنية بحقها في الاكتمال الذاتي، فليس هناك مبنى ومعنى وإنما هناك بنية مكتملة تحمل معناها الخاص.

البنية الوظيفية

قصص آدم عليه السلام

يرد هذا القصص في مواضع كثيرة من الكتاب الحكيم، ونحن في هذه الدراسة نتتبع هذا القصص في أكثر مواضعه تفصيلا، واصفين البنية الوظيفية الخاصة بكل موضع. واضعين في الاعتبار- دائما- ترتيب نزول السور القرآنية الكريمة.

أ- في سورة ص (٣٨):

١- إخبار الله الملائكة بخلق آدم (٧١- ٧٢)

٢- سجود الملائكة، وامتناع إبليس (٧٣- ٧٦)

٣- طرد إبليس (٧٧- ٧٨)

٤- طلبه الإنظار إلى يوم البعث، وإجابته إلى طلبه (٧٩- ٨٣)

obeikandl.com